الدرب في اتجاه معاكس

قصة بقلم ادريس الخوري

الصورة الاولى

يستيقظ دال في الصباح كعادته شبه متأخر (أحيانا يستيقظ دال متأخرا اذا شارك في ليلة حمراء مثلا ، ليلة قانية كالدم . كل ليالي دال قانية كالدم) . يغسل وجهه بالماء البارد كالثلج فيحسّ انتعاشا يسري داخل جسمه ممزوجا بالقشعريرة (الفصل فصل خريف) . يمسح دال وجهه بالفوطة المعلقة على الحبل مثل امعاء خروف . يحدق في وجهه طويلا أمام المرآة (المرآة نصفها واضح ونصفها مضبب) . يريد هذا الانسان الدال أن يتأكد ، كل يوم ، من انه لا يزال شابا وان وجهه دليل على ذلك (لا توجد الآن تلك القضية التي تسمى سوء التغذية ، ذلك ان دال بدأ يعرف ، عن طريق المقالات الخفيفة المتنوعة وعن طريق الاعلانات التلفزيونية، أصناف المأكولات التي تتوفر على فيتامينات (س) الموجودة بكثرة ، مثلا ، في (البرتقال) ، مع ذلك ، فحين يطيل دال النظر الى وجهه يصاب بخيبة : انه يكرر نفسه ويكبر ، ولا فائدة من تلك القيلولة البورجوازية ومن فيتامين (س) الموجود بكثرة في البرتقال كما يقولون ، أما هو شخصيا فلا يدري . هل يتذكر دال ماضيه ؟ طفولته ؟ كان دال يكبر ولا نقول ينمو لانه ليس طفلا ، وكانت الايام تسير به بسرعة نحو مصير غامض . هل كان دال يقف الآن على أرضية صلبة ؟ حين يحسّ بأنه يتراهق أمام نفسه وأمام المرآة يبتعد بسرعة عن المرآة ، يدمدم دال لوحده ، يدخل البيت ، يخرج من البيت ، يتجه الى المرحاض ليتبوّل بولة الصباح ، يقف أمام المرآة مرة أخرى ، يدخل البيت ، يشعل السيجارة الاولى من مسلسل التدخين اليومي ، يخرج الى الخارج ويحدّق طويلا في الشمس ، يقول : الله ... يا دال ، لقد انتهت أيامك ، لماذا تفعل كل هذا ؟ يعود الى البيت ويلبس حوائجه ويغادره نهائيا . لقد بدأ الطواف التعذيب .

الصورة الثانية

لقد تأكد لدال انه ليس هناك اي داع لان ينشر غسيله على العالم ، وحيث ان الاشياء تجري أمامه بسرعة ، وبصورة روتينية ، فقد كان يجد نفسه ، مرغما ، على اعادة طبع نفسه دون اي دافع داخلي او خارجي ، مثلا : سيكون عليه ، حين ينزل من الحافلة ، ان يخضع لتحيات بشر لا تربطهم به علاقة حقيقية، فباعتباره وجها « مألوفا » ، وغير عادي ، ويظهر كثيرا في شوارع هذه المدينة الميتة ، فان هذا يعطي الآخرين الغامضين ، الجالسين الآن فوق كراسي المقاهي المنتشرة ، منذ الصباح الى المساء ، شجاعة آنية لكي يحيوه ، لكن وراء التحية ما وراءها . وطالما تساءل مع نفسه : هل من الممكن أن يحيي المرء كثيرا من البشر لا علاقة لهم به ؟ سيكون عليه أن ينزل من الحافلة ، وان يدخل دروبا صغيرة تفضي الى بعضها وان يرى الواجهات التجارية التي كثرت بفضل نموّ البورجوازية الوطنية الماسكة بمقاليد الامور في كل شيء ، وان يخنزر فيه الآخرون القانعون بوضعهم المزري ثم يدخل دربا يفضي به ، مباشرة ، الى مقرّ عمله . وحتى هنا ، في هذا المكان بالذات ، يحسّ دال انه يكرر نفسه بالرغم عنه مثل نسخ الجريدة التي تطبع ثلاثين الف نسخة لشعب يتكوّن من ١٦ مليون نسمة ! سيكون عليه ، هذا الصباح ، أن يبتسم لبعضهم دون أن تكون له رغبة في ذلك ، وان يرد التحية بأحسن منها ، وان يقول كلاما طيبا .

لقد أحسّ دال ، مرارا ، انه شبه معتقل رغم ان الآخرين يريدون ان يدخلوه الى منطقتهم . كان دال مرتبكا ، فما يريده في هذا الصباح ، وكل الصباحات الاخرى ، أن يرى وجه فتاة لا وجه رجل .

تنتشر الشمس عبر الواجهات والطرقات ، ويعدو الناس مسرعين الى اداراتهم حيث يموتون فيها يوميا وهم قانعون بوضعهم لان الدولة فتحت لهم باب الوظيفة. يدخل دال للعمل ، يخرج من العمل ، ينتهي به المطاف كالعادة في المقهى (لا يوجد في هذا البلد شيء آخر غير المقاهي) . قال دال لنفسه : المقهى سجن والصداقات الزائدة سجن والمدينة سجن والمراة نفسها سجن . بعضهم سجن واكثرهم سجن . الا يمكن أن ينتهي كل هذا ؟ أوشك دال أن ينفجر ، وقرر أن يختفي لبضعة أيام لانه يكرر نفسه .

قال صديقه : ما هم الآخرون في نظرك ؟

قال دال : الآخرون عندي حقيقيون وليسوا ميتافيزيقيين .

ـ مثلا ؟

ـ الذين يحصون عليك أنفاسك من الصباح الى المساء الى الليل وهكذا دواليك .

ـ تستطيع أن تتحدى .

ـ فعلا ، اننا نتحدى بظهورنا في الشوارع .

قال صديقه : بسلاما عليك .

ـ الله يعاون .

الصورة الثالثة

من الجانب الآخر ، تقف المدينة عدوا كبيرا . وبالنسبة لدال لم تتح له هذه المدينة أن يحقق توازنا معها ليقفز عبر عوالم أخرى أكثر طمأنينة . كانت المدينة هي هي : بشوارعها وازقتها وواجهاتها ومحلاتها التجارية الكثيرة ، مدينة مستقرة وقانعة بنفسها ، فهي تستيقظ في الصباح الباكر وتنتظر آخر الشهر لتقبض راتبها الشهري المتواضع . لم يحدث أن عرفت هذه المدينة زلزالا عنيفا يغير من مجرى حياتها الطبيعية ومن قناعاتها بأن « كل شيء على ما يرام » . كانت المدينة مسحوقة حتى الجذر ، وكل الانتفاضات التي نبعت من جذورها كانت مجهضة ، وهكذا تتزعزع المدينة لبضعة أيام ثم تعود الى حالتها الطبيعية . ان المدينة الآن تنتظر .

استمر دال في « رؤية » المدينة من السور الكبير فرآها هادئة (لكنها تفور من الداخل) . كان يسمع هدير السيارات فيقول أن لا شيء تغير . التفت حوله فرأى فتاة وفتى يتعاشقان ويضحكان ملء شدقيهما . حوّل نظره نحو الجانب الآخر : بحر صامت وأزرق وبضع رجال مرميين على شاطئه . هل يرمي نفسه من السور ؟ ليس حلا . فكّر ان الصراع أمر حتمي وان البورجوازية المتوسطة والكبيرة يهمها أن ننقرض نحن من هذا العالم لتبقى هي متربعة على عرش الامتيازات .

عاد دال يجترّ أيامه من الصباح الى المساء . تلفن لصديقته وضرب لها موعدا في السادسة مساء في « الدوتشي فيتا » ، ثم ذهب الى البار ليدفن أحزانه الكبيرة والصغيرة والمتوسطة .

كانت المدينة تستيقظ في الصباح ، وكانت الشمس توزع نفسها عبر أرجائها ، ولكي يحقق توازنا ذاتيا ، لكي يتخلص من أوهامه ، قرر أن يقرأ السياسة .

في تلك اللحظة كانت المدينة تستيقظ ، في حين كان دال يغيب .

الدار البيضاء — **ادريس الخوري**

قصة قصيرة

العقم

بقلم إبراهيم زيد

استدارة القمر نهديك ، وبريق النجم عيناك ، نجمك انا الذي هوى ، فلتشهدي يا ضفة انني تفسخت ذرات سرمدية . أطيافا بلا لون .. أنجذب .. أتقاذف .. أكون أو لا أكون .. أن .... أو .... ، وخارج طاقتي تكمن المشكلة ، احملها صخرة ؟ ريشة ؟ اثما ؟ لعنة ؟ مشكلتي انني أعشقك ، لكن ...

ـ وما معنى الـ (لكن) هذه ؟

ـ أن ترحلي معي .

* * *

هجرت الى مرافىء النور ، لم نخلق للزراعة يا معشوقتي ، فما كنا أبدا من سلالة الفراعنة، التيه افي دروب العشق يشفع لي / لا تحملي هما / ان أكون عارضا لصناعة بلدي التقليدية ، أو حمالا ، أو ... أو ... أواه يا معشوقتي ، يحدثني النهر ثانية عن حشرجة التيار ، عن انحسار الموجة بين جزر وجزر ، وما المدّ الا اصطلاح علمي . حدثني أيها الجغرافي عن انحسار الموجة كالدمعة في مقلة العاشق . أحدثك عن أبي والمعول ، كانت يداه خشنتين مشققتين ، يبصق فيهما مبسملا قبل مسك المقبض ، يرفع المعول ، يضرب الارض بقوة ليشقّ مسالك تنفذ منها مياه النهر .. يهوي ثم يهوي مفتتا الصخر .. وحين اتطلع الى عمله البطولي باعجاب ، كان يقول : « الارض عزباء يا ولدي كالصبية ، اقتحمها بقوة ، اغتصبها ، ففي بطنها ألف كنز » . حقا . الارض كالصبية وذلك سر بقائنا ، لكن مشكلتي ـ أنا ـ خارج ارادتي ، فما كنت قط من أصل